شخصية السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1277م) في دراسات بعض المستشرقين الاوروبيين

احمد رضا احمد

قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة رابرين، إقليم كردستان، العراق

المستخلص

السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري 658-676هـ/ 1260-1277م ، من أشهر الشخصيات الاسلامية البارزة ابّان الحروب الصليبية بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي والذي عرف باسم الحروب الصليبية ، ومع كل ما حوته شخصية بيبرس من صفات فاضلة كالشجاعة والنخوة الدينية فضلاً عن دوره في الذود عن الدولة الاسلامية، وهزيمته للصليبيين والمغول،وعلى الرغم من الاعمال والخصال الايجابية التي كانت تميز بها، الا أن شخصيته لم تكن تخلوا من السلبيات ايضا ، بدليل ما اشارت اليه المصادر الاسلامية قبل المسيحية ، في هذه الدراسة يحاول الباحث عرض نظرة المستشرقين في شخصية الظاهر بيبرس ، حيث شغل السلطان الظاهر بيبرس حيزاً وافراً في دراسات المستشرقين وأبحاثهم، نظراً لدوره المؤثر في العلاقات بين الشرق والغرب في ودوره في تغير في ميزان القوى فترة الحروب الصليبية و الغزو المغولي . في ضوء ما تقدم، يحاول الباحث برسم مخطط بياني لصورة بيبرس عند المستشرقين ، يمكننا القول إن الخطاب التاريخي الاستشراقي الأوروبي كان متأثرا الى حد بعيد بعبء الذاكرة التاريخية المثقلة بهواجس الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي منذ العصور الوسطى وخصوصاً في فترة حروب الصليبية و حركة الاسترداد في إسبانيا . ومن خلال هذه الدراسة يحاول الباحث ومن خلال تتبع اراء هؤلاء المستشرقين الى اظهار شخصية بيبرس من خلال المصادر الاسلامية أولا ومن ثم الخوض في اراء المستشرقين محاولا ايجاد التوافقات او الاختلافات و انحرافات ان وجدت فيما كتبه الاوروبيين عن هذه الشخصية الذي عمل في اغلب فترات عمره اما قائد ميداني يعتمد عليها السلاطين الايوبيين و المماليك او انه اعتلى عرش السلطة الى ان توفي.

مفاتيح الكلمات: الظاهر بيبرس، الشخصية، الاستشراق، الشجاعة، الخيانة.

1. المقدمة

اهتم المؤرخون المسلمون بشخصية بيبرس، رابع سلاطين المماليك، فأفردوا له سيرا ودراسات مستقلة، وتناولوا محطات حياته واهم الأحداث في عهده في إطار دراستهم لتاريخ الدولة الإسلامية حيث جاء في كتابات المؤرخين المسلمين أن بيبرس من أعظم سلاطين المماليك، امتاز بالتدين ، واتصف بالحزم والشجاعة ، والبأس الشديد، وعلو الهمة، وبعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية و الشجاعة والدهاء، والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء. لكن هناك بعض المؤرخين الذين بالغوا في مدح بيبرس من هؤلاء ابن عبد الظاهر**(692 هـ/ 1293م)** في كتابه (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر)، ومنهم من وصفه بشكل مبسط ، فمثلا ان ابن واصل (ت 697هـ/ 1297م) معروف عنه انه مؤرخ العصر الأيوبي(570-658هـ/1172-1260م) الذي لم يكن مع التغير الذي حصل في نظام الحكم من قبل المماليك فلا نرى في (كتاباته مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) المبالغة في مدحه. والذي يهمنا في هذه الدراسة هو بيان موقف و اراء المستشرقين عن شخصية السلطان الظاهر بيبرس، حيث شغلت هذا الشخصية حيزا وافرا في دراسات وأبحاث المستشرقين والمؤرخين الاوروبيين نظرا لدوره المؤثر في العلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية، وكذلك دوره في تثبيت اركان الدولة المملوكي الهدف هو اظهار شخصية هذا السلطان في الكتابات الغربية ، والغوص في دراساتهم من اجل الوصول الى ارائهم وتوجهاتهم في هذا المجال ، في الواقع لا يمكننا أن أستعراض كل ما نشر من الكتب الاوروبية بصورة عامة والتي تناولت السلطان بيبرس. ولكن نحاول ان نستعرض توجهات بعض المستشرقين والكتاب الاوربيين في مدارس الاستشراق الاوربية المختلف وقد عكست كتابات هؤلاء المستشرقين صوراً لبيبرس متباينة حينا ومتناقضة أحيانا، تبعا لاختلاف أغراضها ومراميها، ولتأرجح قيمتها العلمية، بين الموضوعية الصارمة والانحياز التام. لذلك سنحصر اهتمامنا في ما كتبه عدد من هؤلاء المستشرقين حول شخصية بيبرس في مدارس الاستشراقية المختلف مشيرين بإيجاز إلى من قارب نظرة كل منهم إلى السلطان المملوكي، وذلك لأن المستشرقين في هذه المدارس الاستشراقية يعتبرون من أبرز أعلام

البريد الإلكتروني للمؤلف : ahmed.mejw@uor.edu.krd

حقوق الطبع والنشر © ٢٠٢٦ احمد رضا احمد. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 4.0

مجلة جامعة كويه للعلوم الانسانية والاجتماعية. المجلد ٩، العدد ١ (٢٠٢٦) .
أُستلم البحث في ١٣ كانون الأول ٢٠٢٤ قُبل في ٢٦ كانون ألثاني ٢٠٢٥ ورقة بحث منتظمة: نُشرت في ٢٠ آيار ٢٠٢٦

الاستشراق في القرن التاسع عشرة والقرن العشرين، ويمثلون اتجاهات مختلفة في النظر إلى الإسلام والمسلمين، ولكونهم الأكثر تأثيرا في المؤرخين المحدثين من أهل الشرق والغرب.

أهمية البحث : تعود أهمية البحث إلى تقديم صورة واضحة عن شخصية السلطان الظاهر بيبرس في الدراسات الغرب ولاسيما بيان اراء الغربيين عن هذه الشخصية وما كتبوا عنها ومدى تباين الاراء عند المستشرقين في تكوين شخصيته والموازنة بين الاراء المختلفة للمدارس الاستشراقية المختلف ومن المعروف ان هناك العديد من الدراسات عن العصر المملوكي من اهمها(ستانلي بول -كتاب سيرة القاهرة ، وليم ستيفنسن في كتابه الصليبيون في الشرق، هنري لامنس بعنوان - المراسلات الدبلوماسية بين المماليك والملوك النصارى، يوركن نيلسون- اجراءات بيبرس من اجل تعين أربعة قضاه على وفق المذاهب الاربعة....) .

الهدف من البحث : يهدف موضوع البحث إلى إلقاء الضوء على تتبع اراء الكتاب الغربيين عن شخصية السلطان الظاهر بيبرس ، واظهار صورة السلطان عند الغربيين ، ان ما كتبه الغربيين عن التاريخ الاسلامي بحاجة الى التتبع ودقة متناهية لان المستشرق هو مصدر المعلومات لقراء الغربيين فهناك حاجة ملحة لبيان الاخطاء والمبالغة السلبية في دراساتهم ، وهذا الجانب بحاجة الى إلى مزيد من البحث والدراسة. وبدافع من الشعور العلمي، تطرق الباحث إلى هذا الموضوع لإبراز مزايا وعيوب واهم الجوانب السلبية للمستشرقين في تناولهم شخصية السلطان الظاهر بيبرس.

منهج البحث : إن المنهج المتبع عادة في دراسة علم التاريخ، هو منهج البحث التاريخي القائم على تحديد نقطة البحث، وتجميع المعلومات وتصنيفها وتحليلها وتحديد العلاقة بينها، ثم عرض النتائج وتفسيرها. وهذا ما قمنا به في بحثنا هذا، إذ حددت نقطة البحث وهي "شخصية السلطان الظاهر بيبرس في دراسات المستشرقين"، قمنا بجمع المعلومات والحقائق المتعلقة بها ثم تصنيفها بحسب موقعها من البحث ثم قمنا بتحليلها والجمع بينها ثم استخلاص النتائج وتفسيرها.

٢. التمهيد : نبذة عن الدراسات والبحوث الاستشراقية

وهي مجموعة من الدراسات والبحوث التي أجراها المستشرقون حول مختلف جوانب الثقافة الإسلامية، ولكن يجب علينا أولا تتبع تاريخ الاستشراق وبداياته لكي نحدد مدى استفادة المستشرقين المتأخرين من المستشرقين المتقدمين، حيث تقول بعض الدراسات ان البدايات الاولى للاستشراق عند الباحثين العرب والباحثين بالعربية من غير العرب، تختلف إلى مدى قد يصل إلى أكثر من ستمائة سنة فالبداية عند البعض تعود إلى غزوة مؤته(8هـ/629م) في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم وما حصل من احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤته ومن ثم غزوة تبوك(9هـ/630م) (عدنان محمد زرزور ، يحي محمد ربيع ،حامد عبد العزيز الانصاري 1998، 216) ، وفي هذه المدة، حدث تقاطع وتبادل ثقافي بين المسلمين والرومان، وهذا التواصل قد يكون له أثر في تكون الاستشراق لاحقا، وما حدث من تواصل بين الجيش الإسلامي والإمبراطورية البيزنطية، هذه احداث قدمت فرصا للرمان لاستكشاف ثقافة العرب والمسلمين والتفاعل معها، وهذا يمكن أن يعتبر نقطة بداية في تاريخ الاستشراق والبحث الثقافي المتبادل بين العاملين الإسلامي والغربي (فوزي 1998، 30).

أن البداية " الرسمية " للاستشراق قد انطلقت من مجمع فينا الكنسي سنة 1312م الذي نعرف الآن أنه قد أوصى بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربية، ولاسيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيه البابا" اكلمينس الخامس" بتأسيس كراسي لتدريس العبرية واليونانية والعربية والكلدانية في الجامعات الرئيسية، إن إلحاق اللغة العربية وثقافة الشرق في مجمع فينا الكنسي كان الخطوة الاولى في هذا التفاعل الثقافي الهام،"يجب أن نتأمل في هذه البدايات ونقدر الإرث الذي أسفرت عنه والفهم المتبادل الذي ترسخ مع مرور الزمن" (زقزوق 1982، 18).

يستند المستشرق إلى أبحاث والدراسات المستشرقين التي سبقتهم في الكتابة عن الإسلام والمسلمين وتاريخها وحضارتها، حيث يحترم المستشرقون النصوص وما دون عن احداث السابقة باعتبارها مصدرا قريبا لهم من حيث اللغة والتوافر، وفي الوقت نفسه، يرون في زملائهم السابقين تقديرا ملحوظا واحتراما كبيرين. يمكن القول إن المستشرقين، سواء السابقين أو المتأخرين، قاموا بأعمال بحثية ودراسات مثمرة و متميزة عن الإسلام والمسلمين، استندوا إلى المصادر الاولية سواء الاسلامية او الاوربية في توثيق أبحاثهم ودراساتهم، واعتبروا هذه الدراسات المصادر القريبة والهامة التي أسهمت في تعميق فهمهم للإسلام وثقافته، يجمع المستشرقون بين التقدير لكتاب السابقين و لاعمالهم وبين الرغبة في مواصلة البحث والتعمق في فهم الثقافة الإسلامية من خلال الرجوع الى النصوص المصادر الاسلامية، هذا التراث الفكري المشترك يمثل جسرا هاما للتواصل والفهم بين الشرق والغرب، وهو موروث علمي ثمين يعبر عن التعايش الحضاري والتبادل الثقافي بين الثقافات المختلفة (النملة 1993، 12-13).

كانت الكتابات الاستشراقية السابقة عن التاريخ الاسلامي وحضارتها، واعتبروهم مصادر موثوقة بنية على النظرة الفوقية التي يتمحور حولها الفكر الاستشراقي والاحتقار المعرفي لكتابات المسلمين، بالإضافة إلى عدم إجادة أغلبهم للغة العربية والتمكن من دقائقها والإحاطة بأسرارها، وعدم قدرتهم للرجوع للمصادر العربية، فميزوا هذه الدراسات الاستشراقية في الدرجة عن كتابات المسلمين، وجعلوها أساسات بنى عليها باقي المستشرقين تصوراتهم وأفكارهم ودراساتهم، مع أن أغلبها كان تحت تأثير الخلفيات الفكرية والميولات المذهبية، ما نزع عنها ثوب الموضوعية والإنصاف، ويظهر ذلك جليا في المصادر التي تحيل إليها دائرة المعارف الإسلامية في مواد القصص القرآني، فهي تشير إلى عدد قليل من المصادر الإسلامية العامة، والعدد اكبر لكتب المستشرقين وحتى مقالاتهم، كما يظهر من خلال فهرس المصادر في آخر كتابات المستشرقين (ايمان فرطاس 2021، 55). فلو أخذنا مختلف المواد التي تضمنتها " دائرة المعارف " في مختلف إصداراتها وأكثر المؤلفات الفردية التي كتبها المستشرقون، فإن ذلك يدخل إجمالا في كتابات استشراقية اهتمت بالتاريخ الاسلامي وعلوم القران وتفسيره وكانت عالة على التراث الاستشرافي نفسه فالمادة التي حررها كاراديفو في بداية القرن العشرين " لدائرة المعارف الإسلامية " لا تذكر في مصادرها غير التراث الاستشرافي، والمادة التي حررها كلود كايو " لدائرة المعارف الكونية " مذيلة بعشرين مرجعا كلها بدون استثناء من كتابات المستشرقين أو تلاميذتهم بشتى اللغات اوربية وامر لا يختلف في كتابات بلاشير وجاك بيرك وجويمر وبالجون وجفري (هرماس 2002، 100).

ومع الاخذ بما روج بانتهاء الصالحية الفكرية والبحثية لمصطلح الاستشراق في الفكر الغربي، ولكن ضالته الدوافعية والمصدرية بالاستشراق القديم لم ينقطع تماما؛ إذ إننا نجد أن معظم مقولات المستشرقين الجدد ليست إلا تكرارا لمقولات المستشرقين السابقين، ولاسيما أمثال سيلفستر دي ساسي (ت ١٨٣٨ م) و أرنست رينان (ت ١٨٩٢ م) ، وإجنتس جولدتسيهر (ت ١٩٢١ م) ، وتيودور نولدكه (ت١٩٣٠ م) ، وكارل بروكلمان (ت١٩٥٦م) ، وآرثر جفري (ت١٩٥٩م) ، ولويس ماسينيون (ت١٩٦٢م) ، وريجيس بلاشير (ت١٩٧٣م) وغيرهم، وما زلت كتب أولئك المستشرقين إلى الآن تعاد طباعتها، ويبنى عليها البحث الغربي المعاصر والحديث عن

الإسلام والعرب والمسلمين، بل أكثر من ذلك، فإننا نجد هذا المصطلح (الاستشراق) ما زال متداولا بشكله المصطلحي فضلا عن حمولته الفكرية الايدولوجية في اكثر الفعاليات والمواقع العلمية البحثية والثقافية الغربية ، حتى بعد الإلغاء الشكلي للمصطلح في مؤتمر الجمعية الدولية للمستشرقين المنعقد عام 1973 م، وإلى يومنا هذا . (الهادي 2023، 11) .

كما يعد كتاب "مذاهب التفسير الإسلامي" للمستشرق المجري اليهودي الاصل جولدتسيهر(1921م)، من أشهر كتب الاستشراق في حقل التفسير، وقد اتخذه المستشرقون مصدرا ودليلا لكتاباتهم حول تفسير القرآن الكريم، ونظرا لقيمته العلمية في دوائر الاستشراق ، فقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مرتين: الاولى قام بها علي حسن عبد القادر في اربعينيات من القرن العشرين، والثانية عبد الحليم النجار عام 1955 ، من هذا النص، يمكن استنتاج أن المستشرقين المتأخرون اعتمدوا بشكل كبير على دراسات وأبحاث المستشرقين المتقدمين في مجال تفسير القرآن الكريم، وكثير من المجالات الاخرى في التاريخ الاسلام تم استخدام هذا الكتاب كمصدر ومرجع للمستشرقين المتأخرين لكتاباتهم حول التفسير القرآني، هذا يظهر كيفية استمرارية وتأثير ابحاث واعمال السابقة في توجيه ابحاث والدراسات اللاحقة (هرماس 2002، 84).

ويرى بعض المستشرقون المعاصرون ان بالرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجردا تاما ، ظهر من هذا النص أن تأثير المستشرقين المتقدمين على ابحاث والمؤلفات في مجال الاستشراق والتفسير الإسلامي لايزال ماثلا حتى الوقت الحاضر، على الرغم من جهود الباحثين المعاصرين في محاولة التحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى تجاه الإسلام، إلا أنهم واجهوا تحديات كبيرة في تجاوز هذه افكار التقليدية، بالتالي، يظل التأثير الاستشراقي واضحا في البحث الحديث حول الإسلام والعالم الإسلامي، هذا يظهر أهمية دراسة هذا الجانب من التاريخ الفكري الثقافي لفهم التأثيرات البالغة التي لها على التفسير والدراسات الإسلامية المعاصرة (السامرائي 1983، 69).

وكتابات نولدكة و وجولدزهير و توماس ارنولد و الكثير من المستشرقين الاخرين عن التاريخ الاسلامي بشتى مجالاتها هو الأساس لكل الدرسات اللاحقة في الموضوع، ويتضمن الخطوط العامة الجوهرية لمنهج المستشرقين في الدراسات الاسلامية وفي مجالات المتنوعة من التاريخ الاسلامي، وعلى سبيل المثال كل ما نشر من كتب ومقالات عن القرآن يعتمد على الخطوط الجوهرية العامة لمنهج نولدكه وتلامذته، الذي أصبح يعرف بمدرسة نولدكه للدراسات القرآنية، وقد اعتمدت المقالات الأساسية عن القرآن الكريم في دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الإسلامية ودائرة معارف بوردا الفرنسية على التعريف بالقرآن وفقا لمنهج نولدكه الساعي إلى البحث عما يسمى بمصادر القرآن، يلاحظ أن هناك استمرارية في تأثير وتأصيل المناهج البحثية والفكرية في مجال الدراسات القرآنية، وأن كتاب نولدكه وتلامذته هو الأساس للدراسات اللاحقة في مجال القرآن، هؤلاء المستشرقين يعتبرون أن منهج نولدكه هو الأساس لفهم القرآن وبحث مصادره (عثمان 2009، 407).

كذلك اعتمد المستشرقون بشكل كبير على كتاب " تاريخ العرب العام " الذي كتبه المستشرق الفرنسي لويس سيديو، هذا الكتاب كان مصدرا مهمًا للمعلومات حول تاريخ العرب وثقافتهم وحضارتهم بالنسبة للمستشرقين المتأخرين حيث قام سيديو بجمع معلومات من مصادر عربية وإسلامية متنوعة وقدمها بشكل منهجي ومنظم ، كما ادعى في هذا الكتاب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان على علم بأديان اليهود والنصارى منذ كان بمكة، (سيديو 2020، 59)، وهذا ما اخذه عنه غيره من المستشرقين. ويشير كارل بروكلمان (ت١٩٥٦م) في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية" إلى هذه الدعوى، فيقول: وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيدا (بروكلمان 2005، 34)، إن اعتماد المستشرقين على هذا الكتاب يرجع إلى أنه قدم لهم مصدرا قيما لفهم تاريخ العرب وتأثيرهم على العالم الإسلامي والغرب، رغم أن هناك تقييمات مختلفة لجودة وموضوعية الكتاب، إلا أنه استخدم على نطاق واسع كمرجع في الدراسات المستشرقة والبحوث التي تتناول العالم العربي والإسلامي.

ويشير ابراهيم اللبان من خلال حديثه عن توجهات برنارد لويس وهو مستشرق امريكي معاصر الذي يقول " لا تزال اثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في ابحاث العلمية " ، وهذا يعطينا دليل ان المستشرقين المعاصرين يستقون اغلب معلوماتهم عن العرب والمسلمين من كتابات المستشرقين اوائل، بل من خلال حديث برنارد لويس يتضح انهم تأثروا حتى بأفكارهم ونزعتهم الدينية (اللبان 1970، 36).

يعد التعصب والخروج بنتائج مسبقة من أهم اسباب التي تعيق الخروج من النظرة الغربية للفكر الإسلامي، ففي هذه الحالة، يبنى الاستنتاج قبل تحليل الوقائع واحداث، مما يؤدي إلى تطويع الوقائع واحداث لخدمة الاستنتاج المسبق، وهذا ما كانت تفعله محاكم التفتيش في العصور الوسطى، حيث كانت تصدر أحكاما مسبقة على المتهمين، ثم تبحث عن ادلة التي تدعم هذه احكام (اسد 1974، 53). يمكن أن نستنتج أن اخطاء والتحيزات التي ارتكبها بعض المستشرقين في دراستهم للنصوص الدينية الإسلامية تجاه النصوص الإسلامية و التاريخ الاسلامي بشكل العام كانت تستند إلى اعتمادهم بشكل كبير على دراسات وأبحاث المستشرقين السابقين، وظهر تأثير ابحاث السابقة على ابحاث والدراسات اللاحقة في مجال الاستشراق والتفسير الإسلامي. على الرغم من محاولات بعض الباحثين المعاصرين للتحرر من المواقف التقليدية للمستشرقين، إلا أن التأثير الاستشراقي لا يزال واضحا في البحث الحديث حول الإسلام والعالم الإسلامي، يظهر ذلك أهمية دراسة هذا الجانب من التاريخ الفكري والثقافي لفهم التأثيرات البالغة التي لها على التفسير والدراسات الإسلامية المعاصرة (عثمان 2009، 11-13).

٣. الجانب الديني في شخصية السلطان الظاهر بيبرس.

قبل الاشارة عن اراء المستشرقين عن شخصية السلطان الظاهر بيبرس نستعرض بعض نصوص من المصادر الاسلامية عن شخصيته من اجل الوقوف على موقف المؤرخين المسلمين من هذه الشخصية فقد عرف عن بيبرس انه رجل متدين وملازما للصلوات ، متمسك بالشريعة الاسلامية و تطبيقها ، ووقف بوجه الفساد والظلم ، فامر بتحريم الخمر والملذات واماكن بيعها (غانم 2011، 55-70، 100-126) . ولما حج رؤي بباب الكعبة محرما ياخذ بايدي ضعفاء الرعية لينهضوا ، ووضع ستائر الديباج للكعبة وللحجرة النبوية (سعيد عبد الفتاح عاشور 1963، 180-181) . اكثر ما كان يهتم به هو بناء المساجد وصيانتها ، فقد جدد بناء المسجد النبوي بعد احتراقه وامر باخراج كل المجاورين من المسجد الاموي بدمشق وقد ضيقوا على الناس من ملازمتهم للمسجد بصفة مستمرة فاتسع المسجد على الناس ، وامر بتجديد عمارة الجامع الازهر واعادة صلاة الجمعة فيه، وعمل على تبليط المساجد وتوسيعها حتى لم تبقى بقعة بمملكته الا عمرها بالمساجد (ساهر رافع 2009، 146-147).

لقد اشارت المصادر الاسلامية الى الشخصيته الدينية واهم اعماله في هذا الجانب، وعلى

سبيل المثال ذكر ابن عبد الظاهر الى حج بيبرس وتقديمه خدمات جليلة لاماكن المقدسة في بلاد الحجاز ، حيث ذكر : :" وعزم السلطان على التوجه الى الحجاز الشريف... فوصل الى الميقات فاحرم واحرم الناس ... وقدم مكة ... صافح بيده ... اركان البيت الشريف متبركا...عمد الى الكعبة ... فغسلها بيده ، وحمل الماء في القرب على كتفه ، وغسل البيت الشريف ... كل من رمى اليه احرامه غسله له ...وعلق كسوة البيت الشريف المستعملة بالديار المصرية، ورفعها بيده على اركان البيت الشريف بنفسه وخواصه ... وقضى السلطان فرض الحج كما يجب حلق ونحر... وجهزت الكسوة لمكة ... والمدينة المنورة ...اول من كسا البيت اسعد اليماني ، ثم كساها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ... ثم لم يزل الديباج كسوتها في الدولة العباسية باسرها ، الى ان انقضت ، فكساها السلطان". (الظاهر 1976، 353-356).

كما اشار شافع بن علي الى قيام بيبرس باداء فريضة الحج ، وذكر : "حجه في سنة سبع وستين وستمئة جرى على عادته ، اخفى مقاصده ... فحج واعتمر ، واعطى وأنعم ، تواضع لله تعالى سرا وجهرا " (حسن المناقب السرية 1989، 299). واشار ابن الوردي : " .... ولما حج رؤي بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدي ضعفاء الرعية ليصعدوا وعمل الستور الديباج للكعبة وللحجرة النبوية ... وكان له في السنة عشرة آلاف أردب تفرق في الفقراء والمساكين ووقف على جهات عدة واستن سنن العمرين ونصب للناس خليفة ". (تاريخ ابن الوردي 1996، ج218/2)

اما موقف المستشرقين من تدين السلطان الظاهر بيبرس ولاسيما ادائه فريضة الحج فنبدء بميور حيث ذكر ان بيبرس كان يخضع لاحكام الشريعة ويقدس فرائضها وقد حج البيت الحرام وشيد كثيرا من المعاهد الدينية (ميور 1995، 59).

واشار المستشرق جوناثان بلوم على اداء السلطان فريضة الحج وذكر ان سلاطين المماليك حرصوا منذ قيام دولتهم على بسط سيادتهم على الحجاز لما يمثله من أهمية دينية لدى المسلمين ولإضفاء مزيد من الشرعية على حكمهم حين يقدم اسمهم على غيرهم بالدعاء أثناء الخطبة في الحرمين الشريفين، ولذا اهتم السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ 1259 - 1277م) بشؤونه ، وتدخل في الخلاف بين أمرائه ، ثم توجه ذلك بالرحلة إليه في موسم حج عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)، ليشرف بنفسه على تدبير أموره ويؤكد تبعيته له. ولم تكن تلك الرحلة بالهينة أو اليسيرة، بل كانت محفوفة بالكثير من الأخطار، ولولا قوة عزيمة السلطان الظاهر بيبرس، وإدراكه أهمية القيام بهذه الرحلة لما أقدم عليها. وقد أمضى السلطان الظاهر بيبرس أكثر من عشرة أشهر يعد ويجهز لرحلته إلى الحج ، وأحاط ذلك بسرية تامة حتى قطع لسان أحد رجاله لما كتب إليه يستأذنه بالذهاب معه، لإدراكه صعوبة تلك المهمة ومدى خطورتها .(Bloom Jonathan 1982, 67)

واشار ابن الوردي الى تدين السلطان : "كان الملك الظاهر رحمه الله على قدم من الديانة وكان ملازماً للخمس في أوقاتها وألزم حاشيته بها وحكي عنه أنه ما شرب خمراً قط ومنع كل منكر وكان يحصل من المنكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله... ". (تاريخ ابن الوردي 1996، ج218/2)

أما بيبرس المنصوري فقد أشار إلى صدقات بيبرس وإعماله الصالحة ، حيث ذكر : " أما صدقاته فكان يتصدق في كل سنة بعشرة الاف إردب قمح في الفقراء والمساكين وأرباب الزوايا ، وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم ، ووقف وقفا على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر ، ووقفا ليشترى به خبز ويفرق في فقراء المسلمين " (المنصوري 1998، 159). واشار ايضا الى محاربة بيبرس المنكرات ، حيث ذكر : " امر السلطان بابطال المنكرات واراقة الخمور وتعفية اثار المسكرات ومنع الخانات والخواطي بجميع اقطار مملكته بمصر والشام ومحو هذه الاثار فطهرت هذه البقاع من اراسها وتنظفت من ادناسها" (المقريزي ١٩٩٧، ج2،59).

اما لين بول فقد اشار الى العلاقة الجيدة بين بيبرس وشعبه وتأثير سياسته معهم في كسب دعمهم ويرون فيه ملكا يرعى الأصول الدينية ، ويعادل بين المذاهب الأربعة المختلفة التي جعل لكل منها قاضيا خاصا بها ، وعرف عن بيبرس انه رجل متدين ، متمسك بأهداب الدين وبأوامره ونواهيه ، وحارب البدع والمفاسد ، وتشدد في تطبيق احكام الشريعة ، فحرم شرب الخمر ، واغلق الحانات ، ملازما للصلوات الخمس في اوقاتها ، والزم حاشيته بها، وبهذه الاجراءات حاز على ثقة الرعية ، و قال لين بول عن السلطان ايضا ، ليس بعجيب أن يكون مثل هذا الرجل محبوبا لدى الشعب الذي اتخذه مثالا للملك الذي تتجلى فيه صفات الكرم والشهامة (لينبول د.ت، 180-181).

يرى باركري ان بيبرس جعل الجهاد من أولوياته ورأى منه أساسا في تدعيم أركان دولته وتتفق سياسته هذه مع معظم الأنظمة السنية في القرون الوسطى، ان التهديدات الخارجية من حملات دينية المتمثلة بمسيحية الصليبيين ووثنية المغول قد مهد لازدياد أهمية ايدولوجية الجهاد عند بيبرس وكان يعقد احتفالات لهذا الواجب الديني بوصفها جانبا من جوانب سياسة الدولة. ولا ينكر ان بيبرس كان احد أبطال انتصار المماليك على المغول في سوريا. وهو الذي وضع أساسا لسلسلة من هجمات على معاقل الصليبيين ومن ثم أدى في نهاية المطاف إلى طردهم في فلسطين . وجعل من نفسه محاربا مقدسا من خلال جهاده ودفاعه عن الإسلام وكان الجهاد من الركائز الشرعية الأساسية للمماليك واستمرت إلى نهاية فترة حكمهم . ان وصف بيبرس بالمجاهد المثالي حيث ظهر ذلك جليا في أدبيات الكتاب وعند مؤرخين عهده وفي الوثائق الرسمية والمراسيم والمناسبات (Berkey 2009, .pp7-18) .

قال هولت عن شخصية بيبرس وأطلق عليه صلاح الدين الثاني وكان مؤرخه ابن عبد الظاهر من الذين شبه به بالتأكيد فانه كان يدعو إلى تقديم سيده كوريث حقيقي للأيوبيين ويظهره مكافئ ان لم يكن أعظم من سلفه العظيم. كان لصلاح الدين وبيبرس بعض الأمور المشتركة فكلاهما كانوا أغراب عن جماهير رعيتهم احدهم كردي والآخر كبشاك تركي ولكن كان صلاح الدين من عائلة تنحدر من مناطق إسلامية واستوعب بالكامل في ثقافة الأراضي التي هيمن عليها أما بيبرس فقد كان قائد حربي تركي انتقل إلى الإسلام حديثا ولعب دور ناجح في دور السلطان المسلم ومحارب الحرب المقدسة (Holt 1986, pp96-97).

وتطرق ايرفن الى الجانب الجهادي لبيبرس فيرى ان بيبرس ادعى انه يحكم كالوريث

الطبيعي للصالح أيوب وحسب ابن عبد الظاهر كان بيبرس قد تعلم وتدرب على يد الصالح أيوب وقد حصل على نبل دم هذا السلطان وفضائله الملكية وهي خواص فشل في ان يرثها توران شاه مثلا، وكان بيبرس يقدم نفسه كالمحافظ على تقاليد الصالح أيوب الجيدة، وخلال حكمه وخلفه السعيد بركة خان وقلاوون المملوك الذي سوف يرقى إلى مرتبة الأمير اقسموا الولاء للسلطان على قبر الصالح أيوب. وفي النهاية وبما يتعلق بالسمات أعلاه من حكم المماليك فان بيبرس وخلفه حافظوا على تقاليد السلاطين الزنكيين والأيوبيين كقادة للجهاد (Irwin 1986, 44).

احد مظاهر تدين السلطان الظاهر بيبرس هو احيائه الخلافة العباسية وهي دلاله على تدينه، حيث اشار ابن عبد الظاهر الى احياء الخلافة العباسية ونتفق معها اغلب المصادر الاسلامية في ذلك ، فقد أشار إلى أن السلطان بيبرس سمع بخبر وصول شخص يدعي انه من النسب العباسي ، فطلب من نوابه أن يأتوا به إلى مصر ،إذ ذكر : " ورد كتاب ...مضمونه انه وصل إلى جهة دمشق ... رجل ادعى انه احمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر... فكتب السلطان بخدمته ، وتعظيم حرمته ... خرج السلطان للقائه...وهو لابس شعار بني العباس ...احضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء، والأمراء ... واشهد على نفسه بالثبوت بحضور السلطان ؛ وسمي بالإمام المستنصر بالله ... وبايعه مولانا السلطان ...وبعد ذلك قلد مولانا الخليفة مولانا السلطان البلاد الإسلامية ... ثم بايعه الناس على اختلاف طبقاتهم، وكتب السلطان إلى البلاد بأخذ البيعة" (الظاهر 1976، 99-100).

وعن احياء الخلافة العباسية من قبل بيبرس يشير ميور ان من جليل اعماله انه اعاد الخلافة للعباسيين ، وان كان الخليفة ليس له من الامر شيء الا اسم الخلافة ، وكان بيبرس يخضع لاحكام الشريعة ويقدس فرائضها وقد حج البيت الحرام وشيد كثيرا من المعاهد الدينية ، وكان شديد العداوة للشيعة ومن اكبر المناصرين لاهل السنة (ميور 1995، 59).

يرى توماس أرنولد أن الظاهر بيبرس أراد أن يكسب حكمه صبغة شرعية ، مثله في ذلك مثل أسلافه المماليك (الأرقاء الأتراك) وإن اختلفت وسائلهم عما اتبعه بيبرس فقد كان أسلافه يدعون أنهم يحكمون مصر كأوصياء على الأمراء الأيوبيين الأطفال فحكم أيبك مصر عوضا عن طفل أيوبي من أحفاد صلاح الدين ثم حكم قطز وصيا علي أمير طفل آخر. أما السلطان بيبرس فقد رأى أن يعتمد علي الخلافة العباسية في توطيد دعائم سلطته (Arnold 1924, 89-90). ويرى رنسيمان أن بيبرس أراد أن يجعل لحكومته سندا دينيا ، فجاء إلى القاهرة جماعة من البدو وبصحبتهم رجل اسود البشرة اسمه احمد ، فأعلنوا انه ابن عم الخليفة الراحل . وزعم بيبرس بأنه تحقق من نسبه ، فناداه على انه الخليفة وإمام المسلمين ، غير انه جرده من كل سلطة مادية . ولم يلبث احمد الذي صار يعرف بالحاكم ، ان جرى تسييره إلى بغداد لاستردادها من أيدي المغول (رنسيمان 1997، ج3/542-543).

ويرى جوستاف ويت ان فكرة ترحيب بيبرس بلاجيء من العائلة العباسية في مصر بعد الكارثة التي وقعت للعباسيين في بغداد والغزو المغولي في سنة 656هـ/1258م فكرة عبقرية، والاعتراف به في القاهرة كسلطة روحية . لم يكن مجرد بادرة روحية، بل كان يبدو ذلك في نظر بيبرس هدفاً دينياً ، ولكن كان عنده أهداف أخرى ، ولهذه الخطوة نتائج ملموسة ، وأصبح له السيادة المطلقة على مدن الحجاز المقدسة، وأخيرا أصبحت مصر من ذلك الوقت مركزا للحياة السياسية والدينية تاخد نفس النمط " المملكة الإسلامية" (Wiet 1986, 1126).

ونوه لين بول بأن هدف بيبرس من إحيائه الخلافة هو أن يجعل منها سندا للسلطنة المملوكية التي كانت بحاجة ماسة إلى دعم روحي يجعلها محببة الجانب ، على الرغم من الانتصارات التي حققها ضد المغول . وأراد أن يحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه خطر الطامعين في ملك مصر من أمراء الشام ، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات ، وأراد أن يظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة ، وتنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامي الإسلام (Pool 1901, 264). ويرى لين بول ايضا ان بيبرس استطاع من خلال قدراته الكبيرة وشخصيته المرموقة ان يجعل من نفسه في مرتبة اعلى من سلاطين البلاد الاسلامية الاخرى، وذلك من خلال إضفاء شرعية دينية على دولته من خلال احيائه للخلافة وما كانت لتكسبها من أي مصدر آخر، مما عزز مكانته وهيبته في وجه أعدائه الكثر في الداخل وفي الخارج، كما أن وجود الخليفة العباسي في القاهرة، وهو مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله، يجعل السلطان بيبرس في مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى ، ولا سيما أن الخليفة الجديد الذي أعلن بإسم المستنصر بالله لم يتردد في تقليد بيبرس سلطاته الدنيوية وما سيفتحه من أيدي (Pool 1901, 265).

ويرى توماس أرنولد أن وجود الخليفة العباسي في مصر يضفي على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى ، فضلا عن ان هؤلاء لا يمكنهم التلقب بلقب سلطان لان هذا اللقب انما منح لبيبرس من الخليفة الذي يعد مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله (Arnold 1924, 99). وفي ذلك يرى أرنولد ان من الصعب تقدير الإرتباك الذي أحس به المسلمون عندما لم يعد هناك خليفة تستنزل عليه بركات الله ، ولم يسبق في تاريخ الإسلام حادث مثله (أرنولد 1947، 44) .

يصر المستشرق الفرنسي غروسيه على الإمعان في تشويه صورة بيبرس حين يعتبر مبادرته لإحياء الخلافة العباسية شرا وبلاء على الإنسانية ، لأنها في نظره أمنت الشرعية الدينية للقاتل وأضحى العبد القديم سيدا للأمبراطورية الإسلامية (Grousset 1936, 610). واشار Anne Troadec من خلال تحليله المصادر الاسلامية ان تلك المصادر حاولوا بكل طرق ان يظهروا بيبرس بمظهر المتدين من خلال قيامه باحياء بيبرس الخلافة العباسية في مصر اردوا من ذلك اظهار شخصيته الدينية لسلطان واعطاء الشرعية لسلطته (Troadec 2014, 117-133) .

وعن موقف بيبرس من العلماء ورجال الدين فقد أشار Yaacov Lev الى ان بيبرس حاول التقرب من العلماء وتطورت العلاقات بين العلماء وسلاطين المماليك منذ انتصار المماليك في معركة عين جالوت ، والعلماء لعبوا دورا حاسما وكبيرا في توفير الشرعية للحكم بيبرس وتشكيل الهوية الإسلامية للنظام المماليك ، فمثلا كان ابن واصل بمثابة وزير الخارجية لبيبرس حيث كان يرسله في إتمام مهمات الدبلوماسية ، ومن جهة أخرى فان محيي الدين ابن عبد الظاهر قد اكتسب ثقة بيبرس واصبح من موظفيه المقربين وانه كتب عدة خطابات رسمية باسم بيبرس، كما كتب سيرة الذاتية الرسمية لبيبرس (Lev. 2009, 10).

اما لين بول فيقول ان بيبرس كان ذا شعبية بين الناس، الذين أحبوا دائماً السلطان المقاتل ، خاصة إذا ماكان كريماً ، وكان بيبرس كريماً فى العطايا وفى الصدقات. ولذلك إستطاع كسب ثقة رجال الدين، ليس فقط بسبب أوقافه الدينية ، ولكن أيضاً لإنه لم ينحاز إلى أى مذهب من مذاهب الإسلام ، وللمرة الأولى عين أربعة قضاة ، قاضى لكل مذهب من المذاهب التقليدية، وبالتلاعب بكل منهم ضد الآخر، إستطاع أن يحصل على مايريد فى كل ماله تأثير فى الدين والقانون (لينبول د.ت، 181).

Original Article |DOI: https://doi.org/10.14500/kujhss.v9n1y2026.pp47-57

ومن جهة اخرى اشار المستشرق جوناثان بلوم الى المسجد الذي اسسه السلطان الظاهر بيبرس في سنة 665هـ / 1267م في مصر في دراسة بعنوان (The Mosque of Baybars al-Bunduqdārī in Cairo) ، يعتبر من اضخم المساجد في مصر ، والذي يظهر وجها اخرا لاهتمامات السلطان بالجانب الديني، وكان يهدف من وراء ذلك كسب عاطفة الشعب او الرعية ، وحصوله على تاييدهم المطلق ، واقتداء بمن سبقه من الخلفاء و الحكام و الملوك و السلاطين الذين اهتموا ببناء المؤسسات الدينية في مقدمتها المساجد (Bloom Jonathan 1982, 45-75).

٤. القيم والاخلاق عند السلطان الظاهر بيبرس

وصفت اغلب المصادر الإسلامية بيبرس بالصدق والكرم والعفو تارة وبالغدر والخيانة تارة اخرى وعرف عنه انه كان يخرج خفية بفضل بعض الحيل وكان يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلا وهو بينهم وقيل عنه أنه ما كان يتوقف عن شيء لبلوغ غايته كان يعد الوعود الكاذبة، ويكتب كتبا مزورة، ليحمل فيها قوى الحصون على الاستسلام له كما فعل مع المغيث عمر صاحب الكرك .

وقد اشار ابن واصل الى بعض من مميزات بيبرس منها معاملته الحسنة مع من تمرد عليه بعد طلبهم الأمان ، او مع الذين وقفوا ضده عند تقلده السلطنة ، حيث ذكر :" كتب السلطان اليهم باطابة قلوبهم ، ووعدهم جميلا ، واحسن الى الى رسلهم " لم يكن بيبرس على وتيرة واحدة في تعامله مع خصومه ففي تعامله مع لبرلي بعد طلب منه العفو كان مترددا في قبول اعتذاره ، حيث ذكر :" يغلظ عليه وقتا ، ويلين له وقتا اخر " (واصل 2004، ج6 319). واشار ابن واصل الى كرمه وحسن معاملته لضيوفه من الملوك والامراء ، حيث ذكر :" وردت الكتب من دمشق بحضور الملك الصالح باهله واولاده وغلمانه وخدامه ، فكتب السلطان الى النواب بدمشق المبالغة في خدمتهم ، وحمل الاقامات الى جميعهم ... فخدموا في دمشق اتم خدمة... اكرام السلطان صاحبي حماه وحمص ... رحل السلطان الى الشام ... وصل الى خدمته الملك المنصور صاحب حماه ، والملك الاشرف صاحب حمص فتلقاهما بصنوف الاكرام والانعام الذي يليق بهما، من ملابس الفاخرة ، والخيول المسومة ... " (واصل 2004، ج6 320-321).

بخلاف أبن واصل فان ابن عبد الظاهر قد اكثر في ابراز شخصية بيبرس ومدحه في اكثر من مناسبة في كتابه والسبب في ذلك لقربه من السلطان والعمل معه ، حيث ذكر: " فاقام السلطان الملك الظاهر بين خشداشيته كالشمس بين الكواكب الزاهرة ، وكالاسد بين الاشبال الحادرة ، يتدرب في غزو الكفار ، ويديم الجهاد آناء الليل ، واطراف النهار..." (الظاهر 1976، 47).

نبدأ من وليم ميور الذي علق على الجانب الاخلاقي لبيبرس فيرى انه بالرغم من عدله في ادارة شؤون البلاد كان لا يتاخر ، عند اثارة نار حقده عن الغدر والخيانة والاستهانة بالأرواح والأنفس وتلك طبيعة خاصة بجنسه فكان سريع التصديق لما يلقي إليه من الوشاية ، وكان لا يكتفي بتغير وزرائه وحكامه من وقت لاخر مخافة ان يشتد باسهم عليه فحسب، بل كان يودعهم في أعماق السجن وربما كانوا لا يخرجون منه ابدا وكان اشد أخلاقه إيلاما غدره فانه لم يتأخر او يتردد في استخدامه لقضاء مآربه (ميور 1995، 49-50) . وكان بيبرس نموذجا للمماليك في فضائله ورذائله فلم يخل من تلك الرذيلة التي لا تكاد تسمع بها في العالم الغربي وعلى ما كان عليه من العسف في ابتزاز الاموال والغدر والقتل مما شوه اسمه وكان ملكا عاقلا قوي الشكيمة (ميور 1995، 60). وعلق ميور على ما فعله بيبرس في احدى حملاته على صفد وقتله السجناء بانه النقطة السوداء لا تمحو عن ذلك الفاتح والتي لصقت بانسانيته بل ايمانه، وقد قام باعادة بناء صفد ونقش على جدرانها قصة تدل على الفخر والصلف منها انه " اسكندر زمانه وعماد الدين الذي حول الكنائس الى المساجد ، ورنين النواقيس الى اصوات المؤذنين ، وقراءة الانجيل الى ترتيل القران " وهلم جرا . وفي اخر القصة " نصر الله المؤمنين الى يوم القيامة " (ميور 1995، 54) . ويستنتج ميور من ما ذكره ويقول : " على ان ما قام به من جليل الاعمال وعظيمها ونشاطه الذي لا يتسرب اليه الفتور واعماله العامة ومبراته الحسان وظهوره بين جمهور الناس على الدوام وتالفه كل من كان حواليه كل ذلك حمل الناس على تناسي قساوته وغلظته فلا يزال اسمه يتغنى به الى يومنا هذا في القهوات القاهرة ، وهو يعد من احسن واعظم السلاطين الذين تبوأوا عرش مصر" (ميور 1995، 60) .

اما مؤرخ الحروب الصليبية غروسيه يصف بيبرس بالحيوان المفترس والفظ والسلطان العبد ، ووصف حكم المماليك بالنظام الدموي البربري ، ويذكر غروسيه أن الحجاج المسيحيين كانوا منذ أيام بيبرس يتعرضون للاضطهاد والتنكيل والسلب والنهب في أثناء توجههم على الطريق الموصلة من عكا أو من يافا لزيارة الأراضي المقدسة. (Grousset 1936, Vol. III .605. 626) .

واشار غروسيه ايضا خلال حديثه عن حصار بيبرس لعكا عام 665 هـ/1267م ، أن السلطان بعد أن عجز عن أخذ المدينة عمد إلى قتل المسيحيين الذين التقاهم خارج أسوارها دون أن يحدد هوية هؤلاء المسيحيين .605. (Grousset 1936, Vol. III .630-637) ووجهة غروسيه الى بيبرس تهمة الغدر و عدم إحترامه للعهود والمواثيق ، اتهمه بأنه خاض ضد الفرنجة حرب إبادة (Grousset 1936, Vol. III.657). واجرى غروسيه مقارنة بين بيبرس وخلفائه أو قياصرة المماليك وبين أسياد الإفرنج في الشام ، فثمة حيوانات مفترسة ومتوحشة في مقابل بارونات ينتسبون إلى جماعة حضارية مرهفة المشاعر والأحاسيس. (Grousset 1936, Vol. III.615.657).

ثم يأتي المستشرق ميشو الذي لا يقل تطرف عن جروسيه ، الذي لم يتردد في قدح بيبرس بسيل من الشتائم عندما وصف السلطان بأنه: بربري دعم حكمه بالرذائل وهو العدو الأكبر للعالم المسيحي (M. Michaud 1854, 440). وهذا ظلم و افتراء كبيرين على السلطان الظاهر بيبرس. ولكن أنتوني بردج بالرغم من انتقاده لبيبري الا انه بدء حديثه عن بيبرس بشكل ايجابي ، فقد ذكر في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : " على الرغم من أنه كان فظا الا أنه كان شديد الذكاء , ... وقد جعلته حقيقة كونه لا يحمل المثل العليا خطيرا الى حد رهيب , وبالفعل قد كان مجردا من المباديء الأخلاقية لا يتردد لحظة في اللجوء الى القتل أو الخيانة أو الحنث بقسمه عندما يلائمه ذلك" (بردج 2014، 318).

واشار ابن عبد الظاهر ايضا : " ومن اكبر الأدلة على مروءة هذا السلطان انه أقام في الغربة مدة سبع سنين ، وكابد القلة ، وهو لا يفارق خوشداشيته ... ولما اعطاه الله الملك لم يشغله شيء عن الإحسان إلى كبيرهم وصغيرهم ... فلما من الله بإقبال دولة السلطان جمع منهم الشريد ، وقلاب البعيد ، وقدم المتاخر ، وولى المعزول ، ورد عليهم ما كان غصب من املاكهم واموالهم ونعمهم ، وامر من يستحق الامرة ، وقدم عليهم من يصلح للتقدمه ..." (الظاهر 1976، 73-74). وقد اشار ايضا الى " عفوه وحلمه : قد اتاه الله العفو والحلم ... واكبر شاهد على ذلك قضية الامير علم الدين الحلبي ، وما فعل معه ، وكيف عفا عنه ... " (الظاهر 1976، 74-75). " كرمه وعطاؤه" (الظاهر 1976، 79-87).

اما ابن تغري بردي فقد اشار الى عدة صفات لبيبرس : " وأما سيرته وأحكامه وشرف

نفسه حكى أن الأشرف صاحب حمص كتب إليه يستأذنه في الحج وفي ضمن الكتاب شهادة عليه أن جميع ما يملكه انتقل عنه إلى الملك الظاهر فلم يأذن له الملك الظاهر في تلك السنة غضبا منه لكونه كتب ذلك واتفق أن الأشرف مات بعد ذلك فتسلم الملك الظاهر حصونه التى كانت بيده ولم يتعرض للتركة ومكن ورثته من الموجود والأملاك وكان شيئا كثيرا إلى الغاية ودفع الملك الظاهر إليهم الشهادة وقد تجنبوا التركة لعلمهم بالشهادة " (ابن تغري بردي د.ت، ج180/7). وذكر ايضا : " وأما حرمته ومحابته منها أن يهوديا دفن بقلعة جعبر عند قصد التتار لها مصاغا وذهبا وهرب بأهله إلى الشام واستوطن حماة فلما أمن كتب إلى صاحب حماة يعرفه ويسأله أن يسير معه من يحفظه ليأخذ خبيئته ويدفع لبيت المال نصفه فطالع صاحب حماة الملك الظاهر بذلك فرد عليه الجواب أنه يوجهم مع رجلين ليقضى حاجته فلما توجهوا مع اليهودي ووصلوا إلى الفرات امتنع من كان معه من العبور فعبر اليهودي وحده فلما وصل وأخذ في الحفر هو وابنه وإذا بطائفة من العرب على رأسه فسألوه عن حاله فأخبرهم فأرادوا قتله وأخذ المال فأخرج لهم كتاب الملك الظاهر مطلقا إلى من عساه يقف عليه فلما رأوا المرسوم كفوا عنه وساعدوه حتى استخلص ماله ثم توجهوا به إلى حماة وسلموه إلى صاحب حماة وأخذوا خطه بذلك" (ابن تغري بردي د.ت، ج181/7).

اما رأي المؤرخ الانجليزي رنسيمان عن السلطان الظاهر بيبرس فأنه لم يتخذ صفة العداء والتعصب حينما أتى على ذكر بيبرس في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) , ولكنه وصفه بالعدو الخطير ، حيث ذكر زال بوفاة بيبرس أكبر عدو للعالم المسيحي منذ صلاح الدين، ويقول عن ممتلكات الفرنج الصليبيين في بلاد الشام، ولم يعش بيبرس ليشهد اختفاءها التام , غير أنه جعل ذلك أمرا لا مفر منه . والواقع انه لم يتوافر له الا قليل من الصفات التي جعلت صلاح الدين يظفر بالاحترام حتى من خصومه , اشتهر بيبرس بالقسوة والخيانة والتجرد من الإخلاص والولاء , والخشونة في طباعه وغلظ الحديث .. ومع أن رعاياه لم يكنوا له شيئا من المحبة فأنهم وباعتباره انسانا كان شرا ونقمة , غير أنه يعتبر من أعظم حكام عصره (رينسيمان 1998، ج3 401). وهنا بالغ رنسيمان حينما وصف بيبرس بالشر والنقمة , صحيح أن بيبرس له بعض الأعمال المخزية والتي لا تليق ببطل مثله , غير أن ذلك لا يجعل منه شريرا بالمعنى الحرفي للكلمة لا يمكن أن نعتبر كل توجهات رنسيمان عن بيبرس صحيحة على الرغم من ما ذكر بعض من الأمور الواقعية ، ولكن إن رعاياه في مصر وبلاد الشام يكنون له المحبة وكل مظاهر الاحترام لأنه دافع عن الإسلام ، وأعلى شان المسلمين ضد مخاطر من عدوين كبيرين هما الصليبيين و المغول . واشار رينسمان الى صفة الخيانة والغدر عند بيبرس في محاصرتهم لصفد ، اعلن بواسطة النادين انه يمنح العفو التام عن كل الجنود المحاصرين اذ استسلموا له ، بوعد الانسحاب الى عكا دون اذى، وبعد ان سلم فرسان المعبد القلعة لبيبرس بهذه الشروط قطع رؤوسهم جميعا (رينسيمان 1998، ج3 375) .

اما كلود كاهين فقد انتقد بيبرس ولكن انتقاده له كان موضوعيا وبعيدا عن الانفعال فأخذ على بيبرس بعض الجوانب السلبية مثل شراسته خاصة مع أعداءه الصليبيين فوصفها بأنها: "وقاحة فظة .. عجرفة لا تعرف الرحمة . جرأة تكاد تلامس الجنون. (Cahen 1943, 714).

وعن شدة وغدر السلطان برر لين بول بعض تصرفاته في هذا الجانب وذكر ان نبلاء وضباط الدولة والجيش كانوا يعيشون فى فزع من غضبه. وقد شك فى كل شخص، وبإستمرار كان ينقل الأمراء من موقع إلى آخر، كى يمنعهم من إكتساب نفوذ محلي. وإذا ما أظهر أحد الأمراء علامة على الخيانة، لم يكن هناك مجال لرحمته، وعلى العكس، فقد كانت تتم مكافأة الخادم الأمين مكافأة سخية، وترقية سريعة ومشاركة فى الأراضى المغزوة. كانت أسوء عادات السلطان هى الغدر. كانت كلمته ويمينه بلاقيمة، وكان يفتخر بقدرته على خداع العدو حتى الموت. كانت المكيدة الغادرة التى إستطاع بها التخلص من أحد رجال الكنيسة الأرمن، بأن أرسل له خطاب تراضى، وتركه يقع فى يد عميل مصرى، ليسلمه إلى الحاكم المغولى، هى مجرد مثل من أمثلة خداعه. ولكن من الإنصاف أن نتذكر أنه قد تعامل مع الناس بالمثل، وأن البلاط الذى تدرب فيه، مضافاً إلى خبرة سيرته الشخصية، لم تكن تلك التى تشجع الثقة بلاحدود فى زملائه أو خدمه. فبمثل تلك الخطوات التى صعد بها كان يمكن أن يصعد آخرون أيضاً، وأنه من غير المستغرب أن الشك قد جعلت زنازينه فى القلعة ممتلئة دائماً. وقد أدى عدم ثقته فى وكلائه إلى كثير من المكائد من أجل مراقبتهم دون أن يدروا، فذات مرة كان من المفترض أن يلزم خيمته فى فلسطين بسبب مرضه، لكنه فى الواقع كان قد ركب إلى القاهرة مستتراً على طول الطريق، حيث بقى عدة أيام مختفياً فى القلعة، مراقباً تصرفات أهل الثقة من نوابه (لينبول د.ت، 180-181).

وقد لخص هولت عدد من صفات بيبرس من الغدر والخيانة و دبره الحيل والمؤمرات على اعدئه ، ففي الكثير من الأحيان اظهر بيبرس إصرارا منقطع النظير وشديدا في السعي إلى أهدافه فقد قتل الملك مرتين، مرة من خلال مشاركته في قتل المعظم توران شاه ومرة في قتل قطز وفي الحادثة الأخيرة كان هو اصل المؤامرة. قبضه الخادع على المغيث عمر ولد عدم استحسان من قبل أقرانه المماليك. وكان بعض معاصريه يعتقدون بأن الظاهر بأنه أرسل الخليفة المستنصر مع جيش صغير إلى هلاكه. وفي أكثر حملاته طموحا فشل فاخر حملته إلى الأناضول لم تعطيه سوى سيادة اسمية انتقالية على منطقة الروم ومحاولته جعل السلطنة وراثة في عائلته انتهت بعد ثلاث سنوات من موته بعد ان انقلب زميله قلاوون واخذ العرش من ابنه ولكن حكم بيبرس كان احد الإنجازات البارزة وهذا السلطان المقتدر يستحق ان يكون معاصر ومنافس شديد لادوارد الأول (Holt 1986, pp96-97)

٥. شجاعة وعدل السلطان الظاهر بيبرس

الجانب الثالث من شخصية بيبرس فهو يتناول الشجاعة والعدل ، وكان نجاحه يعتمد على تنظيمه وسرعته في اتخاذ قرارات ادارية ناجحة وجريئة و مصيرية وشجاعته المتناهية ، وعدله بين الرعية فقد ذكر ابن عبد الظاهر في هذا الجانب : "... ما يكون من استعظام السلطان ، وتحقق شجاعته ، وصرامته في قلوبهم... فمولانا السلطان احق بهذا الفتوح دون سائر الناس ، واولى بان يعزي اليه ، وينسب الى عزائمه ، ويقرن باسمه ، ويؤرخ في سيرته ، ويدعى له لاجله" (الظاهر 1976، 67). وقد اشار ابن عبد الظاهر الى عدة مزايا لبيبرس وذكر : "وهو ما خص الله هذا السلطان به من حسن السجايا والاخلاق والمزايا ، فمن ذلك ... شجاعته : قد اتفق الناس انه ما ركب فارس فرسا في زمانه اشطر منه ولا افرس ، ولا اخبر بمواقع الحروب ، والدخول فيها ، والخروج منها ..." (الظاهر 1976، 74-75)

وقال عنه ابو الفداء : "كان ملكا شجاعا عاقلا مهيبا ملك الديار المصرية والشام..." (الفداء د.ت ، ج4 10)..وذكر الذهبي ان بيبرس كان : " شجاعا فارسا مقداما ... ملكا سريا غازيا مجاهدا مؤيدا عظيم الهيبة خليقا للملك يضرب بشجاعته المثل له أيام بيض في الإسلام وفتوحات مشهورة ومواقف مشهورة ولولا ظلمة وجبروته في بعض الأحايين، لعد من الملوك العادلين " (العبر في خبر من غبر 1985، ج3 331) .

واشار ابن تغري بردي الى شجاعة بيبرس حيث ذكر :" فطلع بطلا شجاعا نجيبا لا ينبغى أن يكون إلا عند ملك" (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة د.ت، ج95/7). وذكر

ايضا عن شجاعة بيبرس :"... وكان الملك الظاهر رحمه الله ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه" (ابن تغري بردي د.ت، ج7/168-177).

فقد اشار المستشرقون الى صفة العدل عند السلطان الظاهر بيبرس ولكن هناك اختلاف وتباين في ارائهم ، حيث ذكر لين بول ان بالرغم من النشأة المتواضعة لبيبرس الا انه كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمح في ان يصبح يوما مثل صلاح الدين (Lane- Pool 1901, 264-265). امضى الجانب الاكبر من حكمه في حروب ونضال في خارج مصر (لينبول د.ت، 182-185). وعلق ميور على شجاعة بيبرس ، حيث ذكر انه كان شجاعا نشيطا خفيف الركاب يحب السفر والحركة (ميور 1995، 59).

وأشار المستشرق جوستاف ويت الى شجاعة السلطان بيبرس ، وذكر على الرغم من فداحة الأخطار التي كانت تواجهها دولته، فأن بيبرس قام بثمان وعشرين حملة عسكرية، واجتاز حوالي أربعين ألف كلم متنقلا بين مصر والشام وفي حركته العسكرية ضد أعدائه في داخل السلطنة وخارجها حوالي أربعين ألف كلم، وشبهة السلطان بيبرس بشخصية صلاح الدين الأيوبي، من خلال تحقيق وحدة قيادة المسلمين، والحرب الظافرة ضد الفرنج. واشار ايضا إن الإنجازات الكبيرة التي حققها هذا المحارب الخارق أدخلته على حياته المليئة بالمغامرات في عالم الأسطورة (Wiet 1986, 1125-1126). وذكر جوستاف ويت ايضا ان ملحمة الظاهر بيبرس اوطا بكثير من سيرته الذاتية الحقيقية ، ففي الواقع فان حياته عبارة عن قصة مغامرة ، ان وفاة البطل بشربه كاس من السم قد قدم له من قبل شخص اخر ، وما هو إلا جزء من رومانسية مثالية (Wiet 1986, 1125-1126).

واشار Anne Troadec ان المصادر الاسلامية حاولوا بكل طرق ان يظهروا بيبرس بمظهر الحاكم الشجاع ، وتركيز على بيان دوره بيبرس في الحملات العسكرية على المغول و الصليبيين و سيطرته على العديد من المدن والقلاع والحصون اعطاه صفة البطل والحاكم المسلم المثالي (Troadec 2014, 117-133) .

اشارت المصادر الاسلامية الى صفة العدالة عند السلطان الظاهر بيبرس، فقد اشار ابن عبد الظاهر الى هذا الجانب، وكرس العديد من الصفحات في وصف السلطان ،فتحدث عن : " عدله" ... " ذكر انصافه "... " حسن معاملته " ... " حسن وفائه" (الظاهر 1976، 77-79)

واشار ابن تغري بردي الى عدالة بيبرس حيث ذكر :" جلس الملك الظاهر بدار العدل وحكم بين الناس ونظر في أمور الرعية فأنصف المظلوم وخلص الحقوق ومال على القوى ورفق بالضعيف" (ابن تغري بردي د.ت، ج7/95).وذكر ابن تغري بردي عن صفة العدل عند السلطان :"جلس الملك الظاهر بدار العدل وحكم بين الناس ونظر في أمور الرعية فأنصف المظلوم وخلص الحقوق ومال على القوى ورفق بالضعيف" (ابن تغري بردي د.ت، ج7/163).

نبدء بالمستشرق لين بول في الحديث عن عدالة السلطان ، فقد اشار ان بيبرس كان له دور في تقوية حكومته واطلق عليها حكومة مستنيرة. واشتهر بيبرس بعدالته مع رعيته ومن جهة أخرى كان حازما (Lane- Pool 1901, 264-265) .

واشار Anne Troadec من خلال تحليله المصادر الاسلامية ان تلك المصادر حاولت بكل الطرق ان تظهر بيبرس بمظهر الحاكم العادل والمثالي وكانوا يرون ان ذلك التوجه في مصلحته كسلطان وانه يكسب الشرعية عند المسلمين ، وان ابن عبد الظاهر الذي كتب سيرة لبيبرس يصفه في مناسبات عدة في كتابه بالحاكم المثالي حيث اعادة فتح دار العدل والغى الضرائب وساعد المظلومين. وانه كان يقف امام القضاء في تسوية مشاكله مع من كانوا يرون انهم قد حرموا من حقوقهم من قبله (Troadec 2014, 117-133) .

٦. الكفائة الادارية للسلطان الظاهر بيبرس

اما عن كفائته في الجانب الاداري فقد اشار ابن عبد الظاهر الى ان : " فوض امورهم الى من يقوم بحقوق الجهاد ، ويامر فيهم بالعدل والاحسان ... استقام الامر بغير منازع ، فامر ونهى ، وبذل الاموال ، وامر وامر ، وولى وعزل ، ... استبشر الناس بان الله ولى عليهم من يعرف امور المملكة ، وقوانينها ، ويحل الناس منازلهم ، ويطل المحدثات ، وهي ألوف على ما سياتي ذكره ، وكتب باقامة المطهرة ، واقام مدة ما اهتم بركوب، ولا اشتغل الا برتيب الامور ، واستخلاص الاولياء وكشف حال الاعداء ، واحياء الرسوم الصالحية وتنويه ذكرها ، الى ان عرف المفسد من المصلح " (الظاهر 1976، 70-71).

وقد اشار شافع بن علي الى شخصية بيبرس وذكر انه كان يقوم بزيارت مفاجئة وبخفاء وخاصة في ذهابه الى الحجاز ، حيث ذكر : "جريه على عادته في اخفاء مقاصده ومداهمة كل مملكة بحضوره من غير اشعار ... عاد الى الكرك ، وخرج متسللا من غير ان يشعر به الى حلب ، فاقام بها يومين ... ثم قصد بيت المقدس، فقدس حجته ،ثم زار خليل" (علي 1989، 303). وذكر ايضا : " حضور السلطان الى مصر مختفيا على البريد من دمشق ، كان هذا السلطان خفيف الركاب ، قادرا على السرعة المجيء والذهاب ، راغبا في ان يدهم الناس من احواله بالعجب العجاب ، وان يوري رعيته وامراء دولته انه متى دعي بلسان ضرورة اجاب ... خرج في غضون ذلك مستخفيا ، وعلى كتفه بساطا ، الى من واعده " (علي 1989، 291-292).

وذكر بيبرس المنصوري ايضا : " وكان الملك الظاهر يحب ان يطلع على احوال امرائه واعيان دولته حتى لم يخف عليه من احوالهم شيء. وكان يقرب ارباب الكمالات من كل فن وعلم وكان يميل الى التاريخ واهله ميلا زائدا ويقول : سماع التاريخ اعظم من التجارب وكانت ترد عليه الاخبار وهو بالقاهرة بحركة العدو ، فامر العسكر بالخروج وهم زيادة على ثلاثين الف فارس فلا يبيت منهم فارس في بيته، واذا خرج من القاهرة لا يمكن من العود اليها ثانيا" (المنصوري 1998، 163). وأشار أيضا: " أن تواقيعه التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القبجاق بإعفائهم من الصادر والوارد كان يعمل بها حيث حلوا من مملكة بركة خان ومنكوتمر وبلاد فارس وكرمان ومنها أنه أعطى بعض التجار مالا ليشترى به مماليك وجوارى من الترك فشرهت نفس التاجر في المال فدخل به قراقوم من بلاد الترك واستوطنها فوقع الملك الظاهر على خبره فبعث إلى منكوتمر في أمره فأحضروه إليه تحت الحوطة إلى مصر وله أشياء كثيرة من ذلك" (ابن تغري بردي د.ت، ج7/182) .

واشار المستشرقون الى ذكاء وكفاءة الادارية لسلطان بيبرس، حيث ذكر ميور ان من عادة بيبرس ان يشرف على كل شيء بنفسه سواء اكان بالقاهرة ام بالاسكندرية ام باي مكان اخر راكبا جوادا او هجينا، وكان مولعا بالسفر حتى قيل فيه :

يوما بمصر ويوما بالشام وبالـ فرات يوما ويوما في قرى حلب (ميور 1995، 59)

واشار لين بول انه واجهة مجاعة 664هـ/1265م بذكاء كبير ، فنظم مكيال القمح ، وعمل على إيجاد ما يكفي المعوزين من القوت لمدة ثلاثة أشهر (Lane- Pool 1901, 264-265) . وكان بيبرس جنديا محنكا وسياسيا قديرا ، وكان قادرا على ادارة شئون البلاد في قوة وحزم . (لينبول د.ت، 182-185).

اما المستشرق جوستاف ويت فقد اشار الى قدرات بيبرس الادارية الفائقة ، حيث

اشاد بتنظيم بيبرس لدولته على قاعدتي الأحكام والتوازن، مشيرا بفعلية نظام البريد في أيامه، وأفصح عن إعجابه الشديد بقدرة بيبرس على الإمساك بالأحداث بثقة تامة، على الرغم من فداحة الأخطار التي كانت تواجهها دولته، مقدرا له إقدامه على إحياء الخلافة وتكريس سيادته على الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز. (Wiet 1986, 1125-1126).

وايضا عن الكفاءة الادارية لسلطان بيبرس فقد يشير لين بول ان بيبرس كان يبدو كأنه في عدة اماكن في وقت واحد، لان رحلاته كانت سرية وحثيثة . ومن الامور المحببة اليه انه كان يظل مختفيا في القلعة بضعة ايام يراقب اعماله نوابه ، في الوقت الذي كان يسود فيه الاعتقاد بانه سافر الى سورية (لينبول د.ت، 180-181) . وبطريقة أكثر اعجابا قال لين بول ايضا عن بيبرس ليس بعجيب أن يكون مثل هذا الرجل محبوبا لدى الشعب الذي اتخذه مثالا للملك الذي تتجلى فيه صفات الكرم والشهامة. قضى بيبرس الشطر الأعظم من حكمه فى حملات خارج مصر، لكنه كان يقضى أشهر الشتاء فى القاهرة، وكان يخصص هذه الإستراحات لتحسين العاصمة والبلاد. إهتم بتأسيس وترميم المساجد والمدارس ، إعادة بناء قاعة العدل عند مدخل القلعة، ووسع قنوات الرى، وحفر الجديد منها، وأنشأ الطرق والجسور ، وقد جدد الأسطول المصرى، وبنى أربعين سفينة حربية، كانت حكومته مستنيرة، عادلة ، وحاسمة. وقد واجه المجاعة القاسية لسنة 1264م بإجراءات فورية، حكيمة وكريمة، عن طريق تخفيض سعر بيع القمح، وبالإلتزام، وإجبار ضباطه وأمرائه على الإلتزام أيضاً، بمساعدة المعوذين لمدة ثلاثة أشهر. وقد حاول القضاء على الأمراض المعدية عن طريق العزل الطبى، ولم يكن هناك رجل أكثر منه مليئاً بالنشاط وقوة العمل. فإن لياليه كانت مخصصة للعمل. كان يجيب على الرسائل بشكل سريع وفى الموعد الثابت تماماً. فقد اتم كتابة وتوقيع وختم ستة وخمسين وثيقة فى ليلة واحدة. (لينبول د.ت، 181)

اما هولت فقد قام بمقارنة متميزة بين صلاح الدين وبيبرس وذكر ان بيبرس قد تفوق كجندي على صلاح الدين ولكنه كان متفرد الرأي في أهدافه العسكرية ففي سنواته وحملاته الأولى اخضع معاقل وبلدات الدول ألفرنجيه ورغم أنه أمضى الكثير من الوقت في الميدان إلا انه كان له غريزة إدارية وكان رد فعله شديد على سنجر الحلبي عند استقل في السلطة وظهر بأنه لا يتحمل التنازل عن أي من سلطاته وعلى عكس صلاح الدين ترك لخلفه مملكة مركزية حافظت على وحدتها حتى الاحتلال العثماني كما ان بيبرس اخذ خطوة حاسمة في تحويل السيطرة الإدارية على هرم الأمراء المماليك وهيكلته كانت قائمة بحيث تستمر عمر بقدر سلطنة المماليك. ليس من السهل ان نرى في بيبرس اللمسة الإنسانية التي ميزت صلاح الدين فكلاهما تربياوا في مدرسة قاسية حيث كانت الصداقات حذرة والحكم الخاطئ مدمر ولكن على الأقل ابن أخ احد أقطاب نور الدين بدأ مهنته بداية أكثر اقتدارا من العبد العسكري التركي (Holt 1986, 97)

وذكر جوستاف ويت الى دقة اجراءات بيبرس الادارية حيث كان يقوم بتفتيش ومراقبة حكام الولايات دون سابق انذار، وكان يقوم بزيارات مفاجئة وغير متوقعة لاماكن مختلفة من الشام ودون سابق انذار ومعرفة لمكان توجهه او رحلته. يكفي ايراد بعض الارقام لتكوين فكرة عن رحلات بيبرس ،لايبدو انه قد امضى اكثر من نصف حكمه في عاصمته في القاهرة ،لقد غادرها ستة وعشرون مرة وقد غطت رحلاته بالتاكيد اكثر من اربعين الف كيلومتر (Wiet 1986, vo1 1126).

ومن جهة اخرى فقد وصفه رنسيمان بالرجل السياسي من طراز خاص بالغ الرفعة , كما أثنى على بطولته هو وقطز في عين جالوت (رينسيمان 1998، ج3 401). اما المستشرق دي ماس أبدى اعجابا كبيرا ببيبرس فوصفه بالحكيم وبالقائد البارع الذي يعرف متى يعقد الهدن ومتى ينقضها .. و قال باختصار أن بيبرس كان " سيد السلم والحرب في سوريا " .. (De mas. 1855، 416).

فالمستشرق كلود كاهين وصف السلطان بأنه "حظي بمكانة مرموقة بين رجالات عصره على الرغم من اعتلاءه سدة الحكم اثر ارتكابه جريمة في وضح النهار(يقصد قتله السلطان قطز) ، كما أنه شخصية نادرة في تاريخ الاسلام المتأخر ارتقت الى عالم الأسطورة" . الجنون " ثم عاد و اعترف بأن السلطان كان" .. حاكما قل مثيله بين أقرانه .. و رجل دولة كبير". أن بيبرس كان حاكماً قل مثيله بين أقرانه، وصاحب قرار سريع وحذر في آن، وحس دبلوماسي حاد، ومعرفة تامة بناء وأحكاماً مما عرفه الإسلام في تاريخه الغابر (Cahen 1943, 713-714).

واشار المستشرق ميشو الى حنكة السلطان في المجال الديبلوملسي فقد كانت تربطه علاقات صداقة قوية جدا مع الفونسو العاشر ملك قشتالة الإسبانية وصلت الى درجة رغبة السلطان في مصاهرته (M. Michaud 1854, 440). يقول أنتوني بردج في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : " على الرغم من أنه كان فظا الا أنه كان شديد الذكاء , وفي الواقع كان رجل حكم لامع وجنديا موهوبا أيضا , وقد جعلته حقيقة كونه لا يحمل المثل العليا خطيرا الى حد رهيب " (بردج 2014، 318).

ونوه يوشع براور عن القدرة الفائقة لسلطان بيبرس في الجانب الاداري حيث ذكر : "وفي سنة 1260 كان المملوك بيبرس هو الرجل الحاكم في مصر ، وهو قائد ممتاز ورجل دولة هائل القدرة ، وهو من اعظم حكام العالم الاسلامي ، فقد استطلع ان يغير مصير الشرق الادنى في أكثر من اتجاه ، فسرعان ما وضع يده على موارد مصر المالية واستبدل الايوبيين الكسالى برجال عصاميين يتدفقون نشاطا و حمية" (براور 1999، 70) .

اما المستشرق الفرنسي جوستاف ويت فقد قال عن السلطان الظاهر " : ان الانجازات الكبيرة التي حققها هذا المحارب الخارق أدخلته , على حياته المليئة بالمغامرات , في رحاب عالم الأسطورة.. " . (Wiet 1986, 1125-1126).

وقد اشار باركر الى شخصية بيبرس ووصفه بانه من اعظم قادة المماليك ومن جهة انتقده على شدته وصلابته وتعصبه ، ولم يخفل دوره فيء تولى قيادة المماليك في اثناء قتالهم الصليبيين في مصر (Berkey 2009, .pp7-18) .

وقد اشار ابن واصل ايضا ان بيبرس كان مولعا بالرياضة ، حيث ذكر " لعب السلطان بالاكرة ... ولعب بالاكرة في ميدان دمشق ، وفي خدمته جماعة من الملوك ..." (واصل 2004، ج6 319).

واشار ميور الى ان بيبرس كان مغرما بلعبة تتارية تشبه لعبة " تنس" عند الانكليز وتدعى " القبق "كان يخصص لها يومين من كل اسبوع (ميور 1995، 59) . ويشير لين بول ايضا في هذا السياق ان بيبرس مهما كانت عيوبه، فلم يكن منهمكا فى ملذاته، ولم يكن هناك رجل أكثر منه مليئا بالنشاط وقوة العمل. وإذا كانت أيامه غالبا ماتقضى فى الصيد أو فى لعبة البولو، أو الرماية (لينبول د.ت، 181).

من خلال اراء المستشرقين نلاحظ ان هناك آراء تباين في ارائهم في تناولهم شخصية السلطان الظاهر بيبرس, وأخيرا نرى في سيرة بيبرس آراء ركزت على الجانب التدين و البطولي وكفائته الادارية. وكل تلك الآراء لمؤرخين وباحثين غربيين, فنرى كيف أن آراؤهم متناقضة مما يجلب على الحيرة في كيفية الحكم على شخصية الظاهر بيبرس , ولعل أقرب وصف لحقيقة بيبرس ما قاله أحد أكبر علماء علم الرجال في تاريخنا الاسلامي وهو المؤرخ الكبير الحافظ الامام الذهبي , فقال بأن الظاهر كان " : غازيا مجاهدا مؤيدا , عظيم الهيبة خليقا بالملك , يضرب بشجاعته المثل , له أيام بيض في الاسلام , وفتوحات مشهورة .ولولا ظلمه وجبروته في بعض الأحيايين , لعد من الملوك العادلين (أ. الذهبي

Original Article |DOI: https://doi.org/10.14500/kujhss.v9n1y2026.pp47-57

1985، ج3 331) ".

٧. نتائج البحث: من اهم ما توصل اليها الباحث في هذه الدراسة:

١. تبين للباحث من خلال عرض عدة النصوص عن شخصية السلطان الظاهر بيبرس من المصادر الاسلامية، ان هناك تحيز تام من اغلب تلك المصادر لشخصية بيبرس واظهاره كرجل المتدين والحليم والمجاهد الفذ والبطل و العادل والمنصف مع الرعية و الرجل الدولة الاول ذوو المقدرة والكفاءة الادارية العالية وهذا لا يدل على ان لم يكن هناك من المؤرخين المسلمين لم ينتقدوا السلطان .

٢. من خلال عرض اراء المستشرقين تبين للباحث ان هناك تبيان في اراء المستشرقين في تناولهم شخصية السلطان بيبرس فمنهم من امتازت آراؤه بالاعتدال ، واتفقوا مع المصادر الاسلامية في اظهار السلطان بيبرس بوجه مشرف و كشخصية فذة و معتدلة ويبدوا ان هؤلاء المستشرقين كانوا تحت تاثير النصوص الاسلامية .

٣. وهناك فئة اخرى من المستشرقين تناولوا شخصية السلطان بيبرس بشكل حاد و قاسي وعنيف امتازت آراؤهم بشكل سلبي وصوروا بيبرس كشخص متوحش وعديم الثقة و غادر ، وهؤلاء تاثروا بروايات المصادر الاوروبية او وقعوا تحت تاثير الصراع الدموي بين الشرق والغرب في العصور الوسطى او القتال والحروب التي عرفت بالحملات الصليبية التي شنها الاوروبيين على العديد من المناطق في العالم الاسلامي ولا سيما بلاد الشام ومصر.

٤. افرزت الدراسة ان بعضا من المستشرقين تناولوا شخصية السلطان بيبرس بشكل محايد ويبدوا ان هؤلاء حاولوا قدر الامكان ان يتعاملوا مع النصوص الاسلامية و الاوروبية بشكل صحيح ومن خلال التحليل و وتقييم العلمي و الاكاديمي لما جاء في النصوص التاريخية توصلوا الى بعض الحقائق مما جعل ارائهم فيها نوع من الحقيقة والانصاف.

قائمة المصادر والمراجع

ابن الوردي. (1996). تاريخ ابن الوردي. بيروت: دار الكتب العلمية.

توماس أرنولد. (1947). الخلافة. (ترجمة : جميل معلى) دمشق.

ساهر رافع . (2009). الظاهر بيبرس. الجيزة: دار المعارف.

سعيد عبد الفتاح عاشور . (1963). الظاهر بيبرس. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمةوالترجمة والطباعة والنشر.

ابراهيم اللبان. (1970). المستشرقون والاسلام. القاهرة: مجمع البحوث الاسلامية.

ابن تغري بردي. (د.ت). النجوم الزاهر في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. (1985). العبر في خبر من غبر. (المحرر : ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول) بيروت: دار الكتب العلمية.

ارنست باركر. (1967). الحروب الصليبية. (ترجمة : السيد الباز العريني) بيروت: دار النهضة العربية.

محيي الدين ابن عبد الظاهر(1976). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (المحرر : عبد العزيز الخويطر) الرياض.

بيبرس المنصوري(1998) ، زبدة الفكر في تاريخ الهجر ،(المحرر : د.س ريجاردز) بيروت: مؤسسة حسيب درغام .

انتوني بردج. (2014). تاريخ الحروب الصليبية. (الترجمة : احمد غسان و نبيل الجيرودي) دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر.

ايمان فرطاس. (2021). مرتكزات القراءة الاستشراقية للقصص القرآني. مجلة المعيار، 55.

تقي الدين المقريزي (1997)، السلوك لمعرفة دول الملوك(المحرر : محمد عبد القادر عطا) . دار الكتب العلمية، بيروت.

حسن احمد الهادي. (2023). الاستشراق شكلية المصطلح ودلالات الأيديولوجيا. مجلة دراسات استشراقية، 33، 9-16. تم الاسترداد من https://m.iicss.iq/?id=135

ستانلي لين بول. (د.ت). سيرة القاهرة ، 180-181. (ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرون) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ستيفن رنسيمان. (1997). تاريخ الحروب الصليبية ،. (ترجمة : السيد الباز العريني) بيروت: دار الثقافة.

شافع بن علي. (1989). حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية. (المحرر : عبد العزيز الخويطر) الرياض.

عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس. (2002). علم التفسير في كتابات المستشرقين. مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشرعية واللغة العربية وادابها،

عدنان محمد زرزور ، يحي محمد ربيع ،حامد عبد العزيز الانصاري. (1998). الثقافة الاسلامية في مواجهة التحديات. دوحة: مركز الحكمة.

علي بن ابراهيم النملة. (1993). مصادر المعلومات عن الاستشراق و المستشرقين استقراء والمواقف. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

عماد الدين اسماعيل ابو الفداء (د.ت): .المختصر في أخبار البشر، القاهرة : المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة.

عماد الدين غانم. (2011). الملك الظاهر بيبرس. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.

فاروق عمر فوزي. (1998). الاستشراق والتاريخ الاسلامي. عمان: الاهلية للنشر والتوزيع.

قاسم السامرائي. (1983). الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. الرياض: دار الرفاعي.

كارل بروكلمان. (2005). تاريخ الشعوب الاسلامية. (الترجمة : نبيه امين فارس و منير البعلبكي) بيروت: دار العلم للملايين.

ل . ا . سيديو (2020)، تاريخ العرب والعالم (ترجمة :عادل زعيتر)، مركز القومي للترجمة، القاهرة .

محمد اسد. (1974). الاسلام على مفترق الطرق. (ترجمة : عمر فروخ) بيروت: دار العلم للملايين.

محمود حمدي زقزوق(1982).الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. دار المعارف.القاهرة.

ناصر بن محمد عثمان. (2009). اثار مدرسة الاستشراق الالمانية في الدراسات القرانية. القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاسلامية.

وليم ميور. (1995). تاريخ دولة المماليك في مصر. (ترجمة : محمود عابدين و سليم حسن) ، القاهرة: مكتبة مدبولي.

يوشع براور. (1999). عالم الصليبيين. (ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن) عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

Anne Troadec. (2014). Baybars and the Cultural Memory of Bilād al-Shām:The Construction of Legitimacy. Mamlūk Studies Review, 113-146.

Arnold, Thomas . (1924). The Caliphate,. London: Oxford University Press.

Berkey, J. P. (2009). Mamluk Religious Policy. mamluk studies review, vol. 13, no.2.

Bloom Jonathan M. (1982). The Mosque of Baybars al-Bunduqdārī in Cairo. . In: Annales islamologiques , 18, 45-78. Retrieved from https://www.persee.fr/doc/anisl_0570-1716_1982_num_18_1_1052

Claude Cahen. (1943). , La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche. Paris: librairie orientalist paul geuthner.

Holt, P . M . (1986). the Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517. London: Longman London.

Lane- Pool,Stanley. (1901). A History of Egypt in the Middle Ages. London: N.P.

M. L. De mas Latrie. (1855). Histoire de l'Ile de Chypre. Paris: IMPRIME PAH Al'TOHIlATIOM UE L'EMPEREUR.

M. L. De mas Latrie. (1855). Histoire de l'Ile de Chypre. Paris: IMPRIME PAH Al'TOHIlATIOM UE L'EMPEREUR.

M. Michaud,. (1854). Histoire des Croisades. Paris: Furne.

R. Grousset. (1936). Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jérusalem1(.628, 605, pp.Vol. III, . Paris: Perrin.

Robert Irwin. (1986). The Middle East in the Middle Ages. London: Britain.

Stanley Lane- Pool. (1901). A History of Egypt in the Middle Ages. London ,: ,N.P,.

Wiet, G. (1986). " Baybars I'', EI2 (Vols. , Vol.I). (J. H.-P. H. A. R. GIBB, Ed.) leiden: E.J.Brill.

Yaacov Lev. (2009). Symbiotic Relations: Ulama and the Mamluk Sultans. . Mamluk Studies Review, Vol. 13, no. 1, .p10.

Original Article |DOI: https://doi.org/10.14500/kujhss.v9n1y2026.pp47-57